

الرجاء وحسن الظن بالله

الحمد لله مبلغ الراجي فوق مأموله ، ومعطي السائل زيادةً على مسئوله، نحمده سبحانه على نيل الهدى وحصوله، ونشكره شكرا يقرب إلى حسن العمل وقبوله . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة من رجاه موقنا ، وأناب إليه مؤمنا ، وخضع له مدعنا ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله ، وص فيه وخليله ، أعظم العباد في ربه رجاءً، وأحسنهم به ظناً و أكثرهم دعاءً، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الأطهار، و صحابته الأخيار ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان واقنفي الآثار .

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل، فاتقوا الله رحمكم الله، تقربوا إليه بطاعته، والإكثار من ذكره وشكره، وحسن عبادته، تودّدوا إليه بالتحدث بنعمه، والإحسان إلى خلقه، تعرفوا إليه في الرخاء يعرفكم في الشدة، إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، ومن خاف

اليوم أمن غداً، والربح لمن باع الفاني بالباقي، والخسران لمن سدّت مسامعه الشهوات، وآثر الحياة الدنيا.

أيها المسلمون: الوجود الذى نحسه ، وما يكمن فى جنباته من لطف وبر ، هو نعمة خالصة لا علة لها ولا سبب إلا محض الفضل الإلهي الأعلى .إن المرء ينام وتبقى فى عروقه وأعصابه عشرات القوى التى تضبط حياته لا تهدأ ولا تسكن .من الذى استبقاها يقظة دائبة؟ بل من الذى أبدعها ابتداء من صميم العدم؟ إنه الله القدير .إنه لم يخلقك إثر سؤال منك ، ولم يشرف عليك وأنت جنين لأنك طلبت منه ذلك ، إنه فعل بك ذلك لأنه من ذاته منعم وهاب ، واجد ماجد .ولو كان يدير الأمور وفق الأسئلة والرغبات لاندكت الآفاق وسرت الفوضى فى كل ناحية .إنه أرحم بالعباد من أنفسهم وأعرف بمصالحهم من منتهى تفكيرهم، وعطفه السابق على الخلائق هو الذى يسير الحياة ، ويشيع فيها الخير ، ويضمن لها البقاء.

عباد الله: ومن أجل مزيد بسط وتوضيح لهذا المعنى، فهذه وقفة جادة، مع أحد أهم المعتقدات التي ينبغي للمسلم أن

يعيها ويدركها، بل يتمثلها ويأخذ بأسبابها في علاقته مع
خالقه ومولاه، إنه - يا عباد الله - الرجاء في الله سبحانه
وحسن الظن به جل شأنه.

معاشر المؤمنين: إن الفضل ينبثق من ذى الجلال والإكرام
لأن ذلك وصفه كما ينبثق الشعاع من الشمس والله المثل
الأعلى لأن طبيعتها الاتقاد. إن الملك الجليل الذى انبسط
سلطانه على كل شيء فهو فى السماء إله وفى الأرض إله ،
يعطى ويغدق لأن الكمال نعتة وصفته سواء عرف البشر
ذلك أم أنكروا .وعطاؤه على قدر عظمتة ، ومن ثم فهو
أحق من يرجى ويقصد !!

إن البشر يتهافتون على من يأنسون فيه القوة والغنى التماس
عطية أو ابتغاء هدية ، ولو عقلوا لعلموا أن ما لديه قطرة
معاراة ، وأن أحق من يشدون إليه الرحال ويربطون به الآمال
، هو الكبير المتعال .إن الأساس فى طبائع البشر طرا ،
مهما سمت مناصبهم وبدت قدراتهم ، أنهم يأخذون لا
يعطون .أليسوا فقراء إلى الله ، عالة على فضله؟ فالاتجاه

بالرجاء إليهم طيش .أما الرجاء في الله فعمل وافق موضعه
وأصاب هدفه .ثم إن جماهير البشر حين يهألون تتحرك
فيهم صفاتهم الفطرية ، فهم بين جاهل بحال السائل ، أو
عالم بها عاجز عن علاجها ، أو قادر يمنعه شح نفسه عن
الإجابة .وتلك كلها آفات منفية عندما يتجه الرجاء إلى الله
جل جلاله .ولذلك ترى أولى الألباب يقصدونه بالمطالب
الجسام وهم راجون ألا ينقلبوا عن ساحتته إلا راضين...
قال ابن الجوزي : خلقت لي همة عالية تطلب الغايات .
بلغت السن وما بلغت ما أملت ، فأخذت أسأل الله تطويل
العمر ، وتقوية البدن ، وبلوغ الآمال .فأنكرت على العادات
وقالت :ما جرت عادة بما تطلب .فقلت :إنما أطلب من
قادر على تجاوز العادات .وقد قيل لرجل :لنا حويجة فقال :
اطلبوا لها رجلا .وقيل لآخر جنناك في حاجة لا نثقل
عليك .فقال :هلا طلبتموها من أراذل الناس؟ فإذا كان أهل
الأنفة والكرم من أرباب الدنيا يقولون هذا فلم لا نطمع في
فضل كريم قادر؟.

أيها الراجون فضل الله: ترى ما هي العظائم التي نقف بباب الله راجين أن نعود بها؟ ما هي العطايا الكبيرة التي نتمنى على الله قضاءها ، ونراه جل شأنه أهلا للإفضال بها وبأضعافها. إن كل أمرئ يحب ألا يدع شيئا من خير الدنيا والآخرة إلا امتلكه. ولو أن الله منح العباد ما يشتهون من ذلك كله ما تعب ، ولا نقصت خزائنه. غاية ما يجب أن نتصارع به ، أنه لا يجوز أن نطلب إثما ولا جهلا، ولنضرب لذلك مثلا: ماذا يجاب إليه طفل يحب أن يبقى طول عمره رضيعا؟ أيققق له رجاؤه؟ إن أغلب الناس ينزلون في أدعيتهم عند نداء طبائعهم ، ولو أجيوا لعاشوا أطفالا لا يحملون من أعباء التكاليف شيئا. إن الله أهل لأن تنزل عليه بكل ما يجيش في نفسك من آمال. وإذا كان قد أعطى تفضلا من غير سؤال ، فهل يرد سائلا جاءه راجيا؟ بيد أننا بحاجة إلى العقل والأناة والتبصر. روى ربيعة بن كعب رضي الله عنه قال: كنت أخدم النبي صلى الله عليه وسلم نهاري ، فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبت عنده فلا أزال أسمعه يقول: سبحان الله سبحان ربي ،

حتى أمل أو تغلبنى عيناي فأنام . فقال لي يوما : يا ربعة
سلنى فأعطيك . فقلت : انظرنى حتى انظر ، وتذكرت أن
الدنيا فانية منقطعة ، فقلت : يا رسول الله أسألك أن تدعو
الله أن ينجينى من النار ويدخلنى الجنة . فسكت رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم قال : من أمرك بهذا؟ . قلت : ما
أمرنى به أحد ولكنى علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من
الله بالمكان الذى أنت منه فأحببت أن تدعو الله لى . قالى
إنى فاعل فأعنى على نفسك بكثرة السجود .

معاشر الأجابة: الرجاء فى الله تعالى ، وحسن الظن به ، إنما
يقبلان إذا أقرنا بالعمل الواجب ، وصحبهما الإسراع فى
حق الله تعالى ، والسهر على مرضاته . أما مع البطالة
والاسترخاء فلا مكان لرجاء ولا موضع لحسن الظن . وتدبروا
قول البارى جل شأنه يصف من ترشحهم أعمالهم لرضاه :
“إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك
يرجون رحمة الله والله غفور رحيم . ” تأملوا رحمكم الله
إيمان وهجرة وجهاد ، تلك هى التى يرجو أصحابها فضل

الله تعالى .أما الخمول والقعود والراحة فلا تبالغ أَملا ، ولا تنتج إلا شرا .ثم تأملوا في قوله تعالى يحصى أنواعا أخرى من البر ، وهي التي تؤهل لحسن القبول“ : إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور .”تلاوة القرآن و إحياء تعاليمه، والنفقة التي تسد ثغرات المجتمع ما أعلن منها وما أخفى ، والإقبال على الصلوات الجامعة إقبالا يعلى ذكر الله تعالى في الحياة ، ويجعل الهتاف باسمه وحده شارة الأمة، تلك هي أسباب الرجاء الحق ، وتأميل النصر ، والتمكين ، والنعماء .وللناس بطبيعتهم البشرية أخطاء تبدر منهم ويسئون بها إلى أنفسهم وغيرهم ، وربما جرّت غضب الله عليهم ، إلا أنهم إذا أحسوا سوءها ، وضرعوا إلى الله تعالى أن يفك عنهم إصرهما ، كان للرجاء في غفران الله تعالى موضع .إن هذا الرجاء الحار لا يجوز أن يفارق المؤمن في أى لحظة من حياته ، سواء كان قوي الساعد يضرب في الأرض ببأس ،

أو كان ذا ضعفٍ وشيبة يضع قدمه على عتبة الآخرة قادما إلى الله تعالى .

عن أنس رضى الله عنه أن النبي دخل على شاب وهو فى الموت فقال : كيف تجدك؟ قال : أرجو الله يا رسول الله وإنى أخاف ذنوبى . فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : ` لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف . ` وعن حيان أبى النضر قال : خرجت عائدا ليزيد بن الأسود ، فلقيت وائلة بن الأسقع وهو يريد عيادته ، فدخلنا عليه ، فلما رأى وائلة بسط يده وجعل يشير إليه ، فأقبل وائلة حتى جلس ، فأخذ يزيد بكفى وائلة فجعلها على وجهه . فقال له وائلة : كيف ظنك بالله؟ قال : ظنى بالله والله حسن . قال : فأبشر ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ` : قال الله جل وعلا : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن بي خيرا فله ، وإن ظن بي شرا فله ` وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ` : أمر الله عز وجل بعبد إلى النار ، فلما وقف على شفتها التفت ! فقال : أما والله يا

رب إن كان ظني بك لحسنا . فقال الله عز وجل :ردوه ، أنا
عند حسن ظن عبدى بى .

أيها الإحبة في الله :

هذا الرجل الذى التفت إلى الله وهو على شفا الهاوية فى
فؤاده رجاء لم يغرب شعاعه ، جعله إلى الرmq الأخير يتلفت
آملا الغوث ، غير مصدق أن الله يسلمه إلى هذا المصير .
وهو حديث لا يهون من قيمة العمل .إنفا تصور حالة امرئ
مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وكان يجوز أن يقذف
فى النار لئحرق بقايا السوء فى نفسه ، غير أن الله جلت
رحمته عفا عنه وصفح .وكأن كفة الخير فى عمله كان
ينقصها القليل لتميل جهة اليمين ، فكان حسن ظنه بالله
هو المرجح الذى نجا به .أما قلة الاكتراث بالواجب ،
وسرعة التهاوى على المحرم فلا يمكن أن يكونا فى نفس
تحسن بالله تعالى الظن ، بل هما فى نفس صدق عليها
إبليس ظنه .

ألا فاتقوا الله ربكم، وارجوه واحسنوا الظن به، فهو سبحانه
ارحم بالعباد من أنفسهم، وأقرب إليهم من أفئدتهم. اللهم

إنا نسألك حسن الظن بك، وصدق التوكل عليك، وكمال
اليقين بك، يا من يعلم ضمائر الصامتين، ويملك حوائج
السائلين، أدقنا برد عفوك، ولذة مغفرتك، اللهم نسألك ألا
تحجب دعائنا، وألا تقطع رجائنا، وأن تبلغنا بحسن النوايا
مالم تبلغه أعمالنا، برحمتك يا أرحم الراحمين.
بارك الله لي ولكم...

الحمد لله الهادي من استهداه ، الواقى من اتقاه ، الكافي
من تحرى رضاه ، أحمد سبحانه وتعالى ، حمداً بالغاً أمد
التمام ومنتهاه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
جل في علاه ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله
، خيرته من خلقه ومصطفاه . صلى الله وسلم وبارك عليه ،
وعلى آله وأصحابه والتابعين ، كلّ ما رجا راج مغفرة ربه
ورحماه .

وبعد أيها المؤمنون: فإن من التلاعب بالألفاظ أن ترى أمما
جاهلة بالله تعالى ، تمرق في حدوده ، وتهدر أحكامه ،
وتؤمل مع ذلك في نعيمه ورضوانه بدعوى أنها تحسن الظن
بالله تعالى . ومن أدعياء التدين من يتمرد على قواعد الدين ،
ومن يجرى العامة والخاصة على الإفلات من ربقتة باسم
الأمل في الرحمة ، والتعويل على حسن الظن . وذلك كله
ضرب من الفوضى الفكرية والخلقية لا يجوز السكوت عليه

، وقد حاربه الأئمة من قديم ، وشددوا النكير على أصحابه ،
قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندى التماذى فى
الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله
تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار
المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى
على الله عز وجل مع الإفراط :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس
إن العبد إذا بث بذور الإيمان فى نفسه وسقاها بماء
الطاعات ، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر
من فضل الله تعالى تشييته على ذلك إلى الموت ، وحسن
الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقيا
محمودا فى نفسه، وإن ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق
، وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره
حرق وغرور . قال صلى الله عليه وسلم : الكيس من دان
نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها ،
وتمنى على الله الأمانى

وقال تعالى: " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة و
اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا. " وقال تعالى: " فخلف
من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى
ويقولون سيغفر لنا. "

وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال: " ما أظن
أن تبيد هذه أبدا و ما أظن الساعة قائمة و لنن رددت إلى
ربي لأجدن خيرا منها منقلبا . "

ألا فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أن العبد المجتهد في
الطاعات ، المجنب للمعاصي ، حقيق بأن ينتظر من فضل
الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا دخول الجرة.

هذا وصلوا وسلموا...

موقع الشيخ نبيل الرفاعي

<http://www.nrefaei.com>